

(١)

## الطفولة ببناء وأمل

الحمد لله العزيز الحميد، القوي المجيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من نطق بها فهو سعيد، سبحانة هدى العقول ببيان حكمه، وواسع الخلقائق بجلائل نعمه، أقام الكون بعظمة تجليه، وأنزل المدى على أنيائه ومرسليه، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبدًا ورسوله، شرخ صدره، ورفع قدره، وشرفنا به، وجعلنا أمهته، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الطفولة أجمل ما في الوجود، والنبع الحقيقى للحب والحنان في حياة الإنسان، الطفولة أحل مراحل العمر، وأعظم فترات الحياة، والأطفال نعمة جليلة من نعم الله الوهاب التي لا تُعد ولا تحصى {وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}، ففي ابتسامتهم البساطة، وفي تعاملهم البراءة، أحاديثهم مشوقة، ومشاعرهم صافية، أنفاسهم كالزephyr في فجر الربيع، حياتهم نقاء، وصفاتهم يضاء.

وإذا كان واجب الوقت هو بناء إنسان مسلح بالعلم قادر على الإنجاز والتحدى، فاعلموا أيها الكرام أن نواة بناء الإنسان بناء طفولته، فبمقدار ما يتشكل الإنسان في طفولته يصير في رجولته، وحرى بالمجتمع أن يحتشد لهذا البناء الشريف، وحقيقة بكل آب وأم أن يسارعوا في تقديم كل أوجه الرعاية والعناية والترفية والمعونة للطفل، وأن يمددوا إلى ملء فراغ الطفل بما يجعلا سعيدا متفائلا مقيلا على الحياة.

أيها السادة، إن مما تعلمناه من علمائنا الأجلاء أن الطفولة تتوقف عندها الأحكام، وقد استدلوا على ذلك بحال الجناب المعمظ صلوات رب وسلامه عليه، فها هو ينزل من نبره الشريف، ويقطع خطبه السامية؛ تلطفا وتحننا لتعثر حفيديه سيدى شباب أهل الجنابة الحسن والحسين رضوان الله عليهم؛ وتتصور معى أن الصلاة التي هي راحة النبي صلى الله عليه

(٢)

وَسَلَّمَ وَسَكِيْتُهُ وَطُمَانِيْتُهُ، كَانَ حَضْرَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَفِّظُهَا لِأَجْلِ بُكَاءِ طِفْلٍ صَغِيرٍ، فَهَا هُوَ صَلَواتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يُوقِفُ حُكْمَ التَّنَاهِي وَالتَّمَهُلِ، وَيَرْكُهُ إِلَى مَا هُوَ أَحَبُّ مِنْهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنَ التَّحْنُنِ وَالْتَّرْفِي وَالشَّفَقَةِ وَالتَّلَطُّفِ بِالطَّفْلِ، وَإِسْبَاعِ ثُمَّتِهِ فِي الْمُتَعَةِ وَالْتَّرْفِي وَالْتَّعْلِيمِ، فِي تَطْبِيقِ نَبِيِّ فَرِيدٍ وَحَالِ شَرِيفٍ لِتِلْكَ الْقَاعِدَةِ الْقُرْآنِيَّةِ {فَإِنَّمَا رَحْمَةُ اللَّهِ لِنَاسٍ كُلِّهِمْ}.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا يَسْتَحِقُّ أَطْفَالُنَا لُغَةُ الْاِحْتِرَامِ وَالرُّفْقِيِّ وَالرَّحْمَةِ الْمُوجَهَةِ مِنَ الْلِّسَانِ النَّبِيِّ الشَّرِيفِ وَهُوَ يُواسِي طِفْلًا فِي مَوْتِ عُصْفُورِهِ، جَابِرًا خَاطِرَهُ، مُتَرَّقِّبًا يَهُ، رَافِعًا الْخَرْنَ عَنْ قَلْبِهِ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّعْيَرُ؟» أَلَمْ يَجِنِ الْوَقْتُ لِلْمُجْلُوسِ مَعَ أَبْنَائِنَا لِنَسْتَمِعَ إِلَى تَطْلُعَاتِهِمْ وَآمَالِهِمْ، وَنَعِيشَ آلَامَهُمْ، وَنُؤَاسِيَهُمْ كَمَا وَاسَّتِ الْأَحْضَانُ النَّبِيُّوَيَّةُ هَذَا الْطَّفْلُ الصَّغِيرُ، وَالْطَّفْلُ وَفِي ذَكِيَّ حَصِيفٍ، يَحْفَظُ الْجَمِيلَ، وَيَتَذَكَّرُ كُلَّ حَظَّةٍ طَيِّبَةٍ وَيَدِ حَانِةٍ.

أَيُّهَا الْكَرَامُ، أَفْسِحُوا الْمَجَالَ لِلْطَّفْلِ، أَشْبِعُوا مَعْنَوَيَاتِهِ حَتَّى يَخْرُجَ إِنْسَانًا سَوِيًّا قَوِيًّا مُفْكَرًا مُبِدِعًا، امْتَحُوا الْأَطْفَالَ قُبْلَةَ الْحَيَاةِ بِأَنْ تُفَيِّضُوا عَلَيْهِمْ بَجِيلَ الْمَشَاعِرِ وَالْأَحَادِيسِ وَجَرْعَاتِ الْحُبُّ وَالْحَنَانِ؟! اغْرِسُوا فِي أَطْفَالِكُمْ قِيمَ الْمُرَاقِبَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالتَّحَدِّي الَّتِي عَرَسَهَا نَبِيُّنَا الْكَرِيمُ صَلَواتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي وِجْدَانِ الصَّيْيِّ الْأَمِينِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظُكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدُهُ تَجَاهَكَ، إِذَا سَأَلَتْ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بَشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بَشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بَشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بَشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحْفُ».

إِنَّ الْقَلْبَ يَعْتَصِرُهُ الْأَلْمُ مِنْ حُزْنِ طِفْلٍ وَغُصَّةِ حَلْقِهِ جَرَاءَ قَدْ حَنَانَ أُسْرَتِهِ وَسَطَّ مَشَاغِلِ الْحَيَاةِ الْمُتَسَارِعَةِ، أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ أَصْبَحَ حَالُنَا مَعَ أَطْفَالِنَا حَالَ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَسَّا قَلْبَهُ عَلَى أَوْلَادِهِ، فَتَرَاهُ يَسْتَغْرِبُ تَقْبِيلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(٣)

لَا خَفَادِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَحُنُوْهُ عَلَيْهِمْ وَاحْتِواهُ لَهُمْ وَإِفَاضَتُهُ الرُّفْقُ وَالْأَنْسَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، حَتَّى اسْتَحْقَ ذَلِكَ  
الْأَعْرَابِيُّ هَذَا اللَّوْمُ الْمُحَمَّدِيُّ «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ».

\*\*\*

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَعَلَى أَلِهٰ  
وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَبَعْدُ:

فِيهَا الْكِرَامُ، إِنَّ التَّعَامِلَ مَعَ الْأَطْفَالِ مِنْ مُنْطَلَقِ الْحُبِّ وَاللَّذِينَ وَإِخْيَاءِ الطُّفُولَةِ مِنْ أَجْلِ اهْتِمَامِ الْأَدِيَانِ السَّماَوِيَّةِ  
وَالْحَضَارَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَكُمْ مِنْ طِفْلٍ أَحْيَا اللَّهُ بِهِ مَجْدَ أُمَّةٍ؟ وَاسْأَلُوا التَّارِيخَ عَنْ تَجْرِيَةِ الطُّفُولَةِ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسَ،  
وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَمَالِكٍ؛ لِنُذِرُكُمْ أَنَّ الْأَطْفَالَ هُمْ أَمْلُ الْوَطَنِ وَمُسْتَقْبِلُ الْأُمَّةِ.

فَلَنْبَنِ الْإِنْسَانَ بِيَنَاءَ الطُّفُولَةِ الْمُفْكَرَةِ الْمُبَدِّعَةِ، الْقَادِرَةِ عَلَى التَّحْدِيِّ وَالنُّبُوغِ وَالْتَّقْوَةِ، وَلْنُوقِفْ تَزِيفَ الطُّفُولَةِ وَسُنْطَهَا  
الرُّكَامِ مِنَ الْأَلْعَابِ الْإِلْكْتُرُونِيَّةِ، وَالْمَوَاقِعِ الْمَشْبُوَهَةِ، وَالْأَفْكَارِ الْهَدَامَةِ، أَلَا تَقْدِرُ أَهْيَا النَّبِيلُ حَجْمَ الدَّمَارِ الَّذِي يُعَانِي مِنْهُ  
طِفْلُكَ جَرَاءَ الْجُلُوسِ بِالسَّاعَاتِ وَبِيَدِهِ جَهَازٌ حَمُولٌ، فَيَسْتَشَتِّتُ عَقْلُهُ، وَيَقْنِدُ مَلَكَاتِهِ، وَتَضِيقُ مَوَاهِبُهُ.

أَهْيَا السَّادَةُ، إِنَّ التَّعَامِلَ السَّيِّئَ مَعَ الْأَبْنَاءِ يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ أَثْرِ قَبِيحِ دَاهِلٍ نُفُوسِهِمْ، وَيَزِرُعُ مَسَاعِرَ غِلٍّ وَكَرَاهِيَّةَ قَابِلَةَ  
لِلتَّحَوُّلِ إِلَى مَوْجَةِ غَصَبٍ عَارِمَةٍ، وَلَكَ أَنْ تَسْخِيلَ مَاذَا يَكُونُ فِي ذَاكِرَةِ شَابٍ طُرِدَ مِنَ مَسْجِدِ الْحَيِّ وَهُوَ صَغِيرٌ، أَوْ مَا انْطَبَعَ  
فِي قَلْبِ تَلْمِيذٍ لَمْ يَحْدُدْ مِنْ مَعْلِمِهِ إِلَّا الْقَسْوَةَ وَالْغِلْظَةُ؟!

أَهْيَا النَّاسُ، هَذِهِ دَعْوَةٌ لِإِكْرَامِ وَجَبِيرِ خَاطِرِ كُلِّ طَفْلٍ، أَجِيبُوا الطَّفْلَ بِكُلِّ صُورِ الْحُبِّ وَالْوُدُّ وَالْتَّرْفِيَهِ الْمُفْضِيِّ إِلَى  
الْتَّعْلِيمِ؛ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ غَدًا الرَّمُوقِ فِي الْأَنْظَارِ، الْمُبْكِرُ الْمُخْرَجُ الشَّاعِرُ الْأَدِيبُ الْكَبِيرُ.  
اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي أَطْفَالِنَا وَشَبَابِنَا وَوَطَنِنَا العَزِيزُ